

❖ قال شيخ الإسلام بن تيمية رحمته الله :

رب يسرّ وأعن برحمتك

الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم تسليماً .

أما بعد ، فقد سألتني بعض الإخوان أن أكتب له مقدمة تتضمن قواعد كلية تُعين على فهم القرآن ، ومعرفة تفسيره ومعانيه ، والتمييز - في منقول ذلك ومعقوله - بين الحق وأنواع الأباطيل ، والتنبيه على الدليل الفاصل بين الأقاويل ، فإن الكتب المصنفة في التفسير مشحونة بالغث والسمين ، والباطل الواضح والحق المبين .

والعلم إما نقل مُصدّق عن معصوم ، وإما قول عليه دليل معلوم ، وما سوى هذا فإما مُزيّف مردود ، وإما موقوف لا يعلم أنه بهرج ولا منقود . وحاجة الأمة ماسة إلى فهم القرآن الذي هو : « حبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، الذي لا تزيج به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا يُخلّق على كثرة التردد ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء . من قال به صدق ، ومن عمل

به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هُديَ إلى صراط مستقيم ، ومن تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله)) (1) .

قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ (2) ، وقال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (3) ، وقال تعالى : ﴿ الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (4) ، وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا ۖ نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا نُورًا ۖ نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ (5) .

وقد كتبت هذه المقدمة مختصرة ، بحسب تيسير الله تعالى ، من إملاء الفؤاد ، والله الهادي إلى سبيل الرشاد .

*** الشرح :** علمه ﷺ كله من إملاء الفوائد إلا ما شاء الله ليس هذه المقدمة فحسب ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدَى ﴾ ، المقصود هنا هداية الدلالة والعلم

(1) (ت) أخرجه الترمذي (3082) ، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (554) .

(2) سورة طه : الآية 123 - 126 .

(3) سورة المائدة : الآية 15 - 16 .

(4) سورة إبراهيم : الآية 1 - 2 .

(5) سورة الشورى : الآية 52 - 53 .

والإرشاد إلى الحق وهذه هي التي أرسل بها النبي ﷺ وهي مهمته وهذا هو الذي أرسل الله به الرسل جميعاً وهو العلم الذي يهدي ويُنير السبيل ، ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدَى﴾ ، أكد هنا أنه هاد وهو الهادي البشير النذير ﷺ ، هداية الدعوة إلى الخير والإرشاد إليه وتعليم العلم ، وهناك هداية أخرى منعه الله إياها فهنا قال : ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ، وهناك قال : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدَى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدَى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (6) فتلك الهداية غير هذه الهداية ، هداية توفيق القلب إلى الإيمان وإلى التقوى وإلى استقامة القلب لأن الله هو الذي يُقيم القلوب ويضللها ﷻ وهو الذي يهدي هذه الهداية ولا يملكها غيره فمنعها رسوله ﷺ ولا يملكها أحدٌ على الإطلاق ، أما الدلالة على الخير فهي مُهمّة الرسل ومهمّة أتباعهم والدعاة بدعوتهم وهذه هي المثبّته أما المنفية فهي هداية القلوب التي لا يملكها إلا الله ﷻ كما قال ﷻ : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ (7) ، هداية توفيق القلب ، والمقصود من يؤمن بقضاء الله وقدره إثر المصيبة فإنه الله ﷻ يجعل في قلبه الهداية وهذا أمر يجب أن يُتدبّر وعظيم .



(6) سورة القصص : الآية 56 .

(7) سورة التغابن : الآية 11 .

فصل في أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن

يجب أن يُعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه
فقوله تعالى : ﴿ **لَتَبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ** ﴾⁽⁸⁾ يتناول هذا وهذا وقد قال أبو عبد
الرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يُقرئونا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن
مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى
يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً⁽⁹⁾ .
ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة .

وقال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ في أعيننا⁽¹⁰⁾ .
وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدة سنين قيل ثمان سنين ذكره مالك⁽¹¹⁾ .
وذلك أن الله تعالى قال : ﴿ **كتاب أنزلناه مبارك ليذكروا آياته** ﴾⁽¹²⁾ .
وقال : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن** ﴾⁽¹³⁾ ، وقال : ﴿ **أفلم يذكروا القول** ﴾⁽¹⁴⁾ :
وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن !

(8) سورة النحل : الآية 44 .

(9) (ت) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (29920) .

(10) (ت) أخرجه البخاري (3617) ، ومسلم (2781) .

(11) (ت) رواه مالك في الموطأ بلاغاً (477) .

(12) سورة ص : الآية 29 .

(13) سورة النساء : الآية 82 .

(14) سورة المؤمنون : الآية 68 .

وكذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾⁽¹⁵⁾ وعقل الكلام متضمن لفهمه .

ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه ، فالقرآن أولى بذلك .

وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم ، كالطب والحساب ، ولا يستشرحوه ، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم ، وقيام دينهم ودنياهم !!؟

ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلاً جداً ، وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة . فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم . وكلما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر .

ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة ، كما قال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس ، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها⁽¹⁶⁾ .

ولهذا قال الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به .

ولهذا يعتمد على تفسيره : الشافعي والبخاري ، وغيرهما من أهل العلم ، وكذلك الإمام أحمد ، وغيره ممن صنف في التفسير ، يكرّر الطرق عن مجاهد أكثر من غيره .

(15) سورة يوسف : الآية 6 .

(16) (ت) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (30278) .

والمقصود أن التابعين تلقوا التفسير عن الصحابة ، كما تلقوا عنهم علم السنّة وإن كانوا قد يتكلّمون في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال ، كما يتكلمون في بعض السنن بالاستنباط والاستدلال .

*** الشرح :** الصحابة هم أهل اللغة وشاهدوا وعانوا الوحي وهو ينزل ، فهم يعرفون معانيه ومراميّه وهم عربٌ أقحاح ما فسدت قريحتهم وسليقتهم والقرآن قد جاء بلغتهم وبحرفهم وهناك خلفيات ومعلومات متراكمة عندهم لميراثهم القرآن ، ولكونهم يتوقفون عنده فبعضهم يسأل بعض ويستفيد من فهمه ومن علمه أيضاً ، لأنهم يتفاوتون في فهمه ، ويرجعون إلّا قليلاً إلى الرسول ﷺ فيما يشكل عليهم جميعاً ، فهم أفهم للقرآن ولمعانيه وهم معنيّون به قبل غيرهم ويشاهدون الأحوال التي ينزل فيها القرآن ويشاهدون أسباب نزوله ، لأن القرآن ينزل ما بين ابتداء وما بين سبب فإن من جاء بعدهم يتحرّى ويسأل ويبحث وهل هذا السبب ثابت أو غير ثابت ؟ لأن أسباب النزول تُعين على الفهم ، أما هم فهم لا يحتاجون إلى هذا لأنهم يشاهدون ويسمعون من رسول الله ﷺ ويفهمون من إشارات الرسول ﷺ فلا شك لذلك هم أفهم للقرآن ولم يشكل عليهم إلّا النادر من القرآن ، أما من جاء بعدهم فهو يُشكل عليه الكثير ولهذا كلما تقدّم الزمن بعدهم كل ما أشكل على الناس أكثر وأكثر ، ولهذا يجب رجوع أهل العلم وأهل الإسلام إلى فهم الصحابة رضّي الله عنهم ، إذا ما وجدوا في القرآن ما يفسّر القرآن أو في السنّة ما يفسّر أيضاً القرآن فإنهم يرجعون أول ما يرجعون إلى تفسير وفهم الصحابة رضّي الله عنهم ، ولا يقال (هم رجال ونحن رجال !!) كما قال بعض من ضاعوا ولا

يعرفون للصحابة قدرهم وقيمتهم ممن لم يُوجد عندهم إلا النعمة على الصحابة
والحقد عليهم والتحريض وخصوصاً على بعضهم كمعاوية رضي الله عنه وعمر بن
العاص ، [إذ] جميع دعوة الإخوان المسلمين [قائمة على] العداوة لهاذين الرجلين
وهما ستر الصحابة رضي الله عنهم ، فمن طعن فيها فقد طعن في بقية الصحابة ، ويا
للندالة ! سبب ذلك فهم سياسي فاسد لا قيمة له ، لا يؤبه له ولا يلتفت إليه
وهو ضد سنن الله تعالى وضد النصوص من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو ما
فهموه من أن معاوية جعل الحكم وراثياً في أبناءه ! فلو لم يكن في أبناء معاوية فهل
لا يكون وراثياً الحكم ؟ ألا تنتهي الخلافة ؟ ، يقول شيخ الإسلام رحمته الله لو كان في
الامة خليفة وهي لا تستحقه يكون مظلوماً الخليفة والله عادل ولا يظلم والامة
التي لا تستحقه تكون أيضاً كذلك مظلومة لأنها لا تستحقه ولذلك تنتهي الخلافة
التي على منهاج النبوة و« كما تكونوا يُولَ عليكم » ، إذا لم يكن الملك بعدما تنتهي
خلافة أبناء معاوية فيريدون أن تكون في أبناء من ؟ ، ومعاوية رضي الله عنه جميع علماء
أهل الإنصاف من الذين يحترمون الصحابة وعندهم معرفة وفقه في الدين
واحترام وتقدير وتبجيل للصحابة رضي الله عنهم يرون أن معاوية مجتهد له أجران وليس
أجراً واحداً ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله
أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » ، يقول أهل العلم أجران هما أجر
الاجتهاد وأجر الإصابة ، وأجر الاجتهاد ومغفو عن الخطأ إذا أخطأ ، فمعاوية
ذكر شيخ الإسلام وذكره بن خلدون في « مقدمته » وذكره غيرهم بل في أصول
أهل السنة في كتبهم وعقائدهم على أنه رضي الله عنه قد اجتهد لأنه قد جرب الخلاف
والفتن والدماء التي دامت وعرف أنه لا يتجمع الناس إلا على ابنه ولا هناك من

هو أفضل منه ليحول دون هذه الفتنة ودون الدماء ودون المهرج بين الأمة فأوصى لابنه وليّ عهده بالخلافة مجتهداً ، ووالله إن اجتهاده هو الذي حصل به الله ما أراد وإن كانت الخلافة قصيرة وما دامت ، لكن لو كان انفلت العقد بعده ولم يكن قد أوصى لابنه لكن الله ﷻ سلّم في عمل هذا الصحابي الجليل والخليفة الذي اجتمعت عليه الأمة والجماعة فماذا سيكون الأمر ؟! ، ثم فيما بعد ذلك الأمر أسهل وجرى ما جرى وصار ما صار ولكن هذا الاجتهاد منه دفع ودَرَء الله به من الشرور ومن الفتن وسفك الدماء والخلاف بين الأمة خلال بناءها والأضرار التي ربما تكون أكثر مما وقع قبل ذلك ، إذا هذا ذنبه سبحانه الله .

وعيرها الواشون أني أحبها *** وتلك شكاة ظاهر عنك عارها
يعادونه ويرسخون في قلوب شباب الأمة العداوة لمعاوية والعداوة للملوك
بدون النظر إلى الصالح وغير الصالح وما لهم من حسنات وما يدرأ الله به من فتن
وشرور لأنهم جهلة وأصحاب أهداف دنيوية دنيئة .
أقول هذا من باب تحذير الأمة والنصح لها والدّين النصيحة حتى تتنبه
أحياناً قد ينساق الإنسان وهو لا يدري إلى أين يسير وأين يذهب ويفعل ويقول
الباطل وهو يظن أنه حق ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ .

